النخيل من وحي التراث

النخلة شجرة عربية الأصل تكثر في جزيرة العرب والعراق، وفي بلاد المغرب العربي،وكانت قديما تزرع في دمشق وخاصة في سفوح جبل قاسيون بالصالحية وذكر البدري المصري الدمشقي في ((نزهة الأنام)) أن أهل الصالحية يهادون سكان المدينة بالبلح والأترج والكباد لحسن نموه عندهم ونقاوته،أما الآن فيكاد لايرى إلا في بعض حدائق دمشق للزينة.

وفي تدمر يكثر النخيل والزيتون،وخير ثماره البرني،وفي العراق البرجي ويكثر في البصرة على شط العرب.

قدم وفد عبد القيس من أهل هجر - حيث يكثر النخيل - على النبي صلى الله عليه وسلم،فقال:

((خير ثمراتكم البرني يذهب بالداء ولاداء فيه)) ومنه العجوة وهي انضج التمور وأحلاها قال الثعالبي في (فقه اللغة) إذا كانت النخلة صغيرة فهي الفسيلة والودية،فإذا كانت قصيرة تتناولها اليد فهي القاعد والعضيد والجمع عضدان،فإذا صارلها جذع لايتناول منه المتناول فهي جبارة،فإذا ارتفعت عن ذلك فهي الزّقلة والعيدانة،فإذا زاد فهي باسقة،فإذا تناهت في الطول مع انجراد فهي سحوق.

وقال الدّميري في نهاية الأرب: إذا كانت النخلة على الماء فهي كارع ومكرعة،فإذا حملت في صغرها فهي مهتجنة. وإذا كانت تدرك في أول النخل فهي بكور،وإذا كانت تحمل سنة وسنة لاتحمل فهي سنهاء،وإذا كان بسرها ينتثر وهو أخضر فهي خضيرة،فإذا دقّت من أسفلها وانجرد كربها فهي صنبور،فإذا كانت منفردة عن أخواتها فهي عوانة،ويقال للطلع الكافور والضّجك والإغريض،فإذا انعقد سفته العرب السيّاب،فإذا أخضرّ قبل أن يشتدّ سفته العرب (الجدال)،فإذا أعظم فهو البسر،فإذا صارت فيه طرائق فهو المخطّم،فإذا تغيّرت البسرة إلى الحمرة شقحة،فإذا ظهرت الحمرة فهو الزّهو،فإذا بدت فيه نقط من الإرطاب نصفها فهي المجزّع،فإذا بلغ ثلثيها فهي حلقانة،فإذا جرى الإرطاب فيها فهي منسبشة.

كتب قيصر الروم الى عمر بن الخطّاب رضي الله عنه:

إن رسلي أخبروني أنّ بأرضك شجرة كالرجل القائم تغلق عن مثل آذان الحمر،ثم يصير مثل اللؤلؤ ثم يعود كالزمرد الأخضر ثم يصير كالياقوت الأحمر والأصفر ثم يرطب فيكون كأطيب فالوذ اتخذ،ثم يجف فيكون عصمة للمقيم، وزاداً للمسافر،فإذا كان رسلي صدقوني فهي الشجرة التي نبتت على مريم بنت عمران.

وقال الشاعر:

ألم تر أنّ الله قال لمريم

وهزّي إليك الجذع يساقط الرطب

ولو شاء أن تجنيه من غير هزّه
جنته ولكن كل رزق له سبب

وضرب المثل بنخلتي حلوان (بالعراق) في طول الصحبة وقدم المجاورة، وكانتا بعقبة حلوان من غرس الأكاسرة

أسعداني يانخلتي حلوان وابكياني من ريب الزمان
واعلما أن ربيه لم يزل يفرّق بين الألاف والجيران
أسعداني وأيقنا أن نحسا سوف يأتيكما فتفترقان

وفي المثل (مواعيد عرقوب) ويضرب به الكذب،وعرقوب رجل من خيبر ويقال: إنّه من العمالقة أتاه أخوه يسأله؟فقال له عرقوب:إذا أطلعت تلك النخلة فلك طلعها،فلما أطلعت أتاه فقال له: دعها حتى تبلح، فلما أبلحت قال: دعها حتى تزهي، فلما زهت قال: دعها حتى ترطب،فلما أرطبت قال: دعها حتى تثمر،فلما أثمرت سرى إليها عرقوب من الليل فجذّها ولم يعط أخاه شيئاً،فصارت مواعيده مثلاً.

وعدت موعداً ماوفيت به مواعيد عرقوب أخاه بيترب

وقال كعب بن زهير:

صارت مواعيد عرقوب لها مثلاً
وما مواعيدها الا الأباطيل
فليس تنجز ميعاداً إذا وعدت
إلا كما يمسك الماء الغرابيل

وقيل إن الأمير الأموي عبد الرحمن الأول - بعد أن استقر ببلاد الأندلس - أمر بإحضار نخلة من بلاد العرب وزرعها في حديقة قصره بقرطبة، وبعد ذلك كثر زرع النخيل في اسبانيا ثم عم شواطئ البحر المتوسط الأوروبية. وقيل:

إنّ الأمير عبد الرحمن كان في قصر الرصافة بقرطبة.

فوقعت عينه على النخلة فأحس بالغربة وجاش في نفسه الحنين إلى الوطن فقال:

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة
تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل
فقلت شبيهي في التغرّب والنوى
وطول التنائي عن بنيّ وعن أهلي
نشأت بأرض أنت عنها غريبة
فمثلك في الإقصاء والمنتأى مثلي
سقتك غوادي المزن في المنتأى الذي
يسحّ ويستمري السماكين بالوبل

ياسين سويد